((العتاب في شعر العباس بن الأحنف ـ دراسة في المضمون))

الدكتور : حسين عبد حسين حمزة
جامعة الكوفة / كلية الآداب / قسم اللغة العربية

الخلاصـــة //

إن العباس بن الأحنف قد أحب فوزاً وهام بها, وظنّ أن فوزاً كانت تبادله ذلك الحب, فراح يتبادل معها أطراف العتاب,أملا في أن يزيد ذلك العتاب من أواصر الودّ بينهما؛ لأن العتاب يغذي الحب ويزيده أحيانا , لكنه فوجئ بكثرة عتاب فوز له , وإطالتها في عتابه , وتنوع أسباب عتابها, فبدا له أنها قد اتخذت من العتاب سبيلا إلى الصدود والهجران, من هنا وجدناه لم يكن مكثرا من عتابها ولومها, بل مقلا فيه إلى درجة الإحجام والعزوف عنه أحيانا ؛ ليقينه من أن عتابها غير مجد, ولا طائل من ورائه , فضلا عن أن عشقه وهيامه بها , دفعه إلى إيثار الإغضاء والسكوت ـ غالبا ـ على الإفصاح والملاحاة .

Abstract

Admonition is a sentimental art which a person resorts to – a poet or not – when feeling that the person whom he admonishes dose not feel for him any more or hurt him intentionally or unintetionally .

Each one remindes the other his beloved of his offense and attitudes, hopping that he changes his attitude .

AL-Abbas Ibn AL-Ahnaf was of the famous poets in this art . He loved Faws and adord her, and thought that she loved him back, therefore he exchanged admonitions with her, hopping that he could increase the links of courtship between them, but he was astonished by the admonishing of Faws to him .

The reasons of admonishing varied, he thought that she is admmonishing him as a way of avoiding him and breakingup with him . Then he stopped blaming her, knowing that it is useless trying to reach her . His love and feelings which he has for her, made him prefer keeping silent over revealing his feelings .

مما لاشك فيه أن الغزل من أرق فنون الشعر العربي, وأكثرها قربا إلى نفوس الشعراء والمتلقين على حد سواء؛ لما يمتلكه من قدرة على التعبير عن المشاعر والأحاسيس الجياشة, والبوح بمكنونات النفس بشيء من الصدق, من آهات وآلام, وشكوى من المحبوبة التي سلبت قلب العاشق وعقله, فراح ينفث في غزله زفرات العشق والهيام, وآلام الصد والهجران .

إن هذا الفن الصادق, المصور لخلجات قلوب العاشقين, وعواطفهم الإنسانية, وأحاسيسهم المرهفة, لم يكن على نسق واحد, وإنما جاء على ضربين, الأول حسي مادي, والثاني عذري روحي, ولئن كان أبو نواس إمام الشعراء الخلعاء ـ الحسيين ـ وزعيمهم في العصر العباسي, فإن العباس بن الأحنف يعد إمام الغزل العفيف, والعشاق العذريين[1] , وصاحب رايتهم[2] .

فالمعروف أن العباس قد قصر معظم شعره على الغزل, دون سواه من الأغراض الشعرية الأخرى , فما مدح ولا هجا[3] , ولا عمد إلى التكسب بشعره , بل((كان من أولئك النفر الذين قرضوا الشعر للشعر, وارتفعوا به عن أن يكون سلعة تشترى بأبخس الأثمان, وتعرض على أيَّ كان))[4], من الخلفاء والولاة , وأصحاب المال والعطايا , الذين يعمد الشعراء إلى مديحهم , وإسباغ الصفات عليهم ؛ لإرضائهم وكسب نوالهم .

لقد عشق العباس فوزاً وهام بها [5] , ونشأت بينهما قصة حب جارف , لا تختلف تفاصيلها كثيرا عن الإطار العام لقصص العشق, في حياة الشعراء العذريين, التي تقوم على العشق والعفة واللوعة والحرمان[6], وصدود المحبوبة وهجرها للحبيب, خشية الأهل والرقباء والوشاة, فكان حصيلة ذلك كثرة ما نجده في شعره من شكوى وألم, وحزن وبكاء, قاده إلى لوم وعتاب بينهما .

والعتاب لغة : من عَتَبَ يعتُبُ ويَعْتِبُ, عَتَباً وعِتاباً ومعاتبة, والعِتْبُ,من قولهم : عَتَبْتَ على الرجل إذا وَجِدْتَ عليه مَوْجِدَةً , أي غَضِبْتَ عليه ولمته , إشفاقا ونصيحة[7] .

أما اصطلاحا : فإن العتاب فنٌ وجدانيٌ , يعمد إليه الشخص ـ شاعرا كان أو غير شاعر ـ حينما يتكون لديه إحساس بأن الشخص المعاتب قد تحول عن مودته[8] , ومال عن صفوه, وبدت منه إساءة بقصد أو من دون قصد , فيُذكّر كل واحد منهما صاحبه , بما بدر منه من مواقف ,أملا في الرجوع عن تلك الإساءة.

إنه فنٌ يهتم بالعلاقات الإنسانية, وما يطرأ عليها من تغيير, كتلك التي تحدث بين العاشقين, وما يصيب علاقتهم من فتور وكدر, بعد عنفوان وصفاء .

وقد تباينت الآراء حول العتاب, بين فريق مادح ومؤيد له, ومرغب فيه, بوصفه السبيل الأمثل للحفاظ على المودة, وصفاء النفوس؛ إذ ((من لم يعاتب على الزلة, فليس بحافظ للخلة))[9], وكأن العتاب مقياسٌ يركن إليه المتحابون, ليختبروا صدق مشاعرهم وأحاسيسهم , فهو((مفتاح الوصال , قاطع للهجر والملال))[10], الذي قد يصيب المتحابين , ويهيمن على علاقة الحب التي تربطهما , فبوساطته تتأجج الأشواق , وتتحرك العواطف الساكنة .

وفريق آخر ذام ومعارض له, وداع إلى مجانبته, بوصفه ((رسول الفرقة , وداعي القلى, وسبب السلوان , وباعث الهجران))[11], بل هو((سبب وكيد من أسباب القطيعة والهجران))[12], وإنما يحصل ذلك ؛ لأن المُعاتَب يشعر أن صاحبه قد بدأ يُحصي عليه زلاته وأخطاءه, صغيرة كانت أو كبيرة, دون أن يغض الطرف عنها, أو يغفرها , فيتحول العتاب بذلك إلى لون من التوبيخ , والملاحاة التي لا تُجدي نفعا[13] .

ومن ثم فإن الإلحاح في العتاب أمرٌ غيرُ مستساغ, أو مقبول, وإذا كان لابد من العتاب, فعلى المُعاتِب أن يُقلل من عتابه؛ ذلك لأنه إذا ((قلَّ (العتاب) كان داعية الألفة, وقيد الصحبة, وإذا كثر خشن جانبه , وثقل صاحبه))[14], وغدا غير مرغوب فيه , قال أبو هلال العسكري :((وإنْ لم تجد منه (العتاب) بدا, فاقتصد فيه ولا تُكثر منه, فإن الكثير من المحبوب مملول, فكيف من المكروه , والاقتصاد في المحمود ممدوح, فكيف من المذموم))[15] .

وبين هذا وذاك يبقى العتاب سبيلا لرأب الصدع بين العاشقين, والكشف عن مكنون نفوسهم, ومخبوء مشاعرهم , وهذا ما دفع العباس بن الأحنف إلى معاتبة فوز.

من هنا فإننا سنحاول الوقوف عند العتاب الصادر عن الشاعر نفسه إلى محبوبته , وأسبابه, وموقفه من ذلك العتاب أولا, ثم الوقوف عند عتاب فوز له ـ الذي جاء على لسانه ـ وموقفه من عتابها له ثانيا, للوصول إلى الفرق بين العتابين .

1ـ عتاب العباس لفوز :

إن أول شيء يطالعنا به الشاعر, أن عتابه ناتج عن محبة , وليس عن بغض, أي أن عشقه فوزا كان السبب الرئيس الذي دفعه إلى معاتبتها .

لـولا محبّتُكُمْ لـما عاتَبْتُكُمْ ولكُنْتُمُ عندي كبعض النّاسِ[16]

فلولا ذلك العشق والمحبة لم يُعِر الشاعر بالا لأي سلوك تأتي به, ولما التفت إلى أي مواقف تصدر منها؛ لأنه عندئذ يكون غير مهتم بها, ولا مشدود إليها, ومن ثم يكون شأنها في ذلك شأن أي إنسان آخر يقابله في حياته (كبعض الناس) , ثم ينصرف عنه , دون اهتمام أو مبالاة .

ولكن فوزا كانت تشغل باله, وتهيمن على أفكاره, وما عتابه إلا مؤشر وعلامة من علامات الحب بينهما, عتاب يصقل مشاعرهم , ويجدد عواطفهم .

عـلامـةُ كُلّ اثنين بينهما هوًى عِـتابُهما فـي كُلّ حـقٍّ وباطلِ

لسانُهما حربٌ وسِلْمٌ هواهما يَجودانِ شوقا بالدُّموعِ الهواملِ[17]

فهو مصداق لمن يذهب إلى أن العتاب((علامة الوفاء, وسلاح الأكفاء, وحاصد الجفاء))[18], الذي قد ينسرب إلى نفوس العاشقين, ويهيمن على علاقتهم, فهو أسلوب ناجع لتصفية النفوس من الكراهية, وطي صفحات الملامة واللجاجة, التي لا طائل من ورائها, سوى بعد العاشقين وحزنهم .

أقولُ لـها ودمعُ العينِ يجري سبيلُ الـحقّ ليسَ بـــه خـفاءُ

إذا كـــان التعتُّبُ مـــن خليـل لِمَـوْجِدةٍ فـليس لـه بـقاءُ

ولكـن إنْ تجنّـى الـذنبَ عمدا أزالَ الـودّ وانقطعَ الـرجاءُ[19]

وكأن العتاب بينهما, غذاء روحي يمدهما بأسباب العشق والهيام .

كُلّ يـومٍ لـنا عِتابٌ جـديدُ وهـوانا علـى العِتابِ يَزيدُ

كُـلُّ حُبّ يبيدُ يـوما فيَفنَى وهَـوانا وهَجْـرُنـا لا يَبيدُ[20]

إنها ثنائية افترضها الشاعر(عتاب جديد / وهوانا ... يزيد), وجعلها سبيلا إلى ديمومة الحب واستمراره, فلا مناص لهما من التعاتب والتلاوم, والهجر والصدود, لئلا تخمد نار العشق المضطرمة في نفسيهما (كل حب يبيد) , (وهوانا ... لا يبيد), كما خمدت في نفوس سواهما من العاشقين, الذين نضبت مشاعرهم, وجفّتْ ينابيع الحب في نفوسهم, فتكسرت أواصر الودّ التي تربطهم .

وعلى الرغم من كل ذلك, فإن الشاعر ما لبث أن أبدى خوفه وقلقه من عتاب محبوبته .

وأحسنُ أيامِ الهوى يومُك الذي تُروَّعُ بالهجرانِ فيه وبالعَتبِ[21]

مؤكدا أن ذلك اليوم المفعم بالتوجس والخيفة , من أجمل أيام عشقه, وكأنه يسعى إلى بثّ الطمأنينة في النفوس, والترويح عنها, بتلك الكلمات (وأحسن أيام الهوى) .

وقد يتبادر إلى ذهن المتلقي, أنْ كيف تكون أحسن أيام العشق, هي التي يروع فيها العاشق بالهجر والصدود واللوم ؟, ولعل الجواب يكمن في أن الشاعر إنما أراد بذلك الترويع والتخويف, قياس مدى العشق الذي يكنه العاشق لمحبوبته, فكلما كان خوفه وقلقه أكثر, كان ذلك دليلا على ارتفاع رصيد المحبوب في نفسه , وتعلقه به , ومن ثم فإن هذه الحال , والمكابدة التي يعيشها العاشق هي التي تبقى عالقة في ذهنه, ووجدانه, يسترجعها ويعيش أجواءها؛ وذلك لأن((لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة))[22], أخرى سوى الظفر بالمحبوب ولقائه .

ومع أن العباس يرى أن العتاب يجدد المشاعر والأحاسيس , ويقوي أواصر الودّ بين المتحابين, إلا أنه يرى في الوقت نفسه, أن العتاب قد يقود إلى القطيعة, وزوال هذا الودّ .

ظهَرَ الخفاءُ فقلتُ إنْ عاتبتُها كان العِتابُ لِودّنا استهلاكا
وطَمعْتُ أنْ تبقى المودّةُ بيْنَنا موصولةً فتركتُ ذاكَ لِذاكا[23]

وقوله:

وإنّ الـودّ ليس يـــــكادُ يبقى إذا كـثُر التجنّي والعِتابُ[24]

وإنما يحصل ذلك إذا ما كثر التعاتب والتلاحي بين العاشقين؛ وذلك لأن ((الإكثار من العتاب داعية إلى الملال))[25] والسأم , والإساءة إلى المحبوب من حيث لا يدري المحب.

إنّ بَعْضَ العِتابِ يدْعُـو إلـــى العَتْـ ـبِ ويُؤذي بهِ المُحِبُّ الحبيبا
وإذا مـــــا القلوبُ لم تُضمرِ العَطْ ـفَ فلَنْ يَعْطِفَ العِتابُ القُلوبا[26]

من هنا كان العباس مترفقا في عتابه , حريصا على أن لا يخدش مشاعر فوز أو يثير غضبها .

لابـُدّ للعـاشقِ مِـــنْ وقْفَـــةٍ تكـونُ بين الـوصلِ والصّرْمِ
يَعْتِبُ أحيـانا وفـي عَتْبِـهِ يَـهيجُ مـا يُخْفي مـن السَّقمِ
...
حتـــى إذا مـــا مَضّهُ شَوْقُهُ راجـعَ مَـنْ يَهْوى على رَغْـمِ[27]

بل وصل الأمر به إلى حدّ الإغضاء عنها , بدافع عشقه وهيامه (حتى إذا ما مضه شوقه ...) .

يضاف إلى ذلك أنه لم يكن مكثرا من عتابه, أو مطيلا فيه ـ مثلما هو حال فوز معه ـ وإنما كان يؤثر السكوت والتكتم ـ على ما فيهما من ألم ومكابدة ـ على التصريح والإفصاح عن كوامن نفسه.

عَتبْتِ ومـا أستطيعُ العِتابـا وحَسْبي بِطولِ سكُوتٍ عَذابا
ولـو كـنتُ أعْـلمُ أنّ العِتـــا ب ينفَعُنـــي لأطـلْتُ العِتابـا[28]

وقوله :

سُكُوتي بلاءٌ لا أطيقُ احتمالهَ وقلبي ألـوفٌ للهوى غيرُ نازِعِ
فأقسِمُ ما تركي عتابَكِ عن قِلًى ولـكنْ لِعـلمـي أنـّه غيرُ نافِـعِ
وأنّي إذا لم ألزمِ الصّبْرَ طائِعا فلابــدّ منـه مُكْرَها غيرَ طائِـعِ[29]

ويلاحظ أن الشاعر قد أشار إلى أن عزوفه عن العتاب لم يكن بسبب بغض, أو مقدمة لصدود (ما تركي عتابك عن قلى), وإنما كان من يقينه أن عتابها غير نافع, ومن ثم فلا طائل من ورائه.

ولكن يبدو أن في نفس الشاعر لجاجة إلى معاتبتها, ورغبة ملحة في مصارحتها, بيد أنه أعجز من أن يواجهها بذلك العتاب ؛ بسبب عشقه من جهة, وخوفه من صدها وهجرها من جهة أخرى .

كَتَبْتُ اسمَها فـي راحتي ولَثَمْتُه أُقبّلـه طَـوْراً وطـوراً أُعـاتِبُـهْ[30]

فكانت المواجهة غير المباشرة , المتنفس الوحيد, والسبيل الأمثل الذي يبث من خلاله شكواه, وما يعانيه منها, وكأن نفسه الهائمة في حب فوز , لا تقوى على لومها .

حبيبٌ أتـاني أنّـه خـانَ عَهْـدَهُ فَبِتُّ بليـلٍ مـــا تَـزولُ كَـواكِبُـهْ
فواللهِ ما أدري أأُغْضـي لِذنْبِـهِ كــأنِـيَ لـم أعلمْ بِـــهِ أمْ أُعاتِـبُـهْ
إذا ما جَنـى ذَنْباً ظلِلْتُ كأنّنـي به صاحِبُ الذنبِ الذي هو صاحِبُهْ[31]

ويبدو أن الشاعر قد هيمن عليه القلق والحيرة, مما جعله مترجحاً بين نارين, نار العشق والهوى , ونار اللوم والعتاب (أأغضي لذنبه / أم أعاتبه), قلق وحيرة لم يأتيا من عدم, وإنما لاحت للشاعر بوادر تنمُّ عن ذلك[32] .

كُنـّا نُعاتِبُكُـمْ لَيالِـيَ عَهْـدُكُمْ حُلْـوُ المَـذاقِ وفيكُـمُ مُسْتعْتَبُ
فاليومَ حين بدا التّنكّرُ مِنْكُـمُ ذَهَبَ العاتبُ وليسَ عَنكُمُ مَذْهَبُ[33]

وقوله :

مَنْ كان لم يَرَ فِعلَ الحُبّ في بَدَني فلْيأْتِنـي يَـرَ مِـنْ آثـارِهِ عَجَبـا
كـيف احتيالـي لإنسانٍ بُليتُ بِـه يجْني الذنوبَ فإنْ عاتبْتُهُ غَضِبا ؟[34]

فكانت فوز لا تتقبل منه العتاب , وتبدي له مشاعر السخط والغضب, وكأنه ليس له الحق في معاتبتها .

على أن هذه الحال التي أبدتها فوز, تتناقض تماما مع حال أخرى كانت تواجه بها الشاعر, وهي حال الانكسار والخضوع والاعتذار .

كانَتْ ظلومُ إذا عَاتبْتُها اعتذرتْ فكُنتُ أحْبِسُ دمعي حين تعْتذِرُ
فـاليومَ قد آيستْنـي أنْ أُعاتِبَـها فاسْتقطرَ اليأسُ دمعي فَهْوَ يَنْحدِرُ[35]

فهذه الأحوال المتبدلة (فإن عاتبته غضبا / إذا عاتبتها اعتذرت), والمواقف المتناقضة, إنما تشي بتغير مشاعرها تجاهه[36] , وتعكس ما طرأ على علاقتهما من ضمور, وودهما من فتور .

فقرَّ في نفسه أن ترك العتاب أولى , والإغضاء أحسن, مادام في ذلك حفاظ على حبهما, ورأب للصدع الذي نشأ بينهما ؛ ذلك ((أن أفضل العتاب, ما غرس العفو وأثمر المحبة, وعتب يوجب العفو والصفاء, أفضل من ترك يعقب الجفاء))[37], وهو ما كان يخشاه العباس, ويسعى جاهداً إلى منعه .

2- عتاب فوز للعباس :

الملاحظ أن فوزا كانت على النقيض من العباس تماما , فهي تكثر من عتابه ولومه كلما التقيا , حتى غدا ذلك دأبها , وشغلها الشاغل .

وقد كنتُ أشكو عَتْبَها وعِتابَها فقد فَجَعتني بالعِتابِ وبالعَتْبِ
وإنّي لأرْعى غيْبَها وأحوطُه وإنْ كنتُ منها في عَناءٍ وفي كَرْبِ[38]

فأخذ العباس يتململ من طول عتابها , وتواصله دون انقطاع , وكأن ديدنها قد أصبح تعكير صفو لقائهما, والقضاء على لحظات الودّ والوئام التي تجمعهما.

تمنيّتُها حَتّى إذا ما رأيتُها رأيتُ المنايا شُرّعاً قد أظلّتِ
...
أطالتْ عِتابا ما أُطيقُ جوابَه لقد عظمَتْ في العينِ مني وجِلّتِ
وصدّتْ بوجهٍ يَبْهَرُ الشمسَ حسنُه إذا أبْصَرتْهُ العينُ حادتْ وزلّتِ[39]

فسمير الروح وأنيس القلب, الذي كان بالأمس مشدودا إليه , وآخذا بمجامع قلبه, يراه اليوم متحريا سقطاته وهفواته, مما جعله يحار في أمره، ويعيا عن جوابه (ما أطيق جوابه), وما ذاك إلا من يقينه بأنه ما جاء بذنب أو جناية تستوجب معاتبته .

أعَتْبا علينا يا ظلومُ فنُعْتِبُ؟ وإنْ كنتُ لم أُحْوِجْكُمُ أنْ تَعتّبوا
ظلومُ ترى الإحسانَ منّي إساءةً وتُذنِبُ أحيانا إلينا وتغْضَبُ[40]

وقوله :

ما زلتُ أحْذرُ هذا العتا بَ من قبلِ أنْ استحِقّ العِتابا
وكنتُ على وَجَلٍ مُشْفِقا أَطيلُ البُكا وأُعِدّ الجوابا
ألا ترحمينَ فتًى مُغْرَما بحُبّكِ يَسقي الدموعَ التُرابا ؟
فما خُلِقَ الحُبّ للعالَمي نَ إلا شقاء وإلا عَذَابا[41]

وهو ما دفعه إلى البحث في مكنونات نفسه عن أجوبة لعتابها المتواصل (أطيل البكا وأعد الجوابا), فلم يجد شيئا يستطيع به إقناعها, سوى البكاء, والاسترضاء, بل الانحطاط إلى درك الاستجداء منها واستعطافها (ألا ترحمين فتى مغرما ...), وليس في ذلك غضاضة أو عيب, فهو مضطر إلى مثل ذلك اضطرارا؛ ذلك أن قلبه معلق بمحبوبته, ونفسه مولعة بها, ومن ثم فليس له إلا أن يخاطبها بهذا الأسلوب الرقيق, علّها تستجيب له, وتشفق على معاناته .

وكأن الشاعر قد ظل مترجحا بين قبول عتابها تارة, ونفيه تارة أخرى, بحسب الظروف التي تحيط به .

ويبدو أن فوزا لم تلتفت إلى بكائه واستعطافه, فقرّ في نفسه أن عتابها ما هو إلا مقدمة للصدود, وقطع أواصر الودّ .

أيُّها العاتبُ الذي يتجنّى كُلّ يومٍ ليصْرِمَ الحبلَ مِنّا
قَدْ عَرَفْنا الذي تُريدُ بهذا فأتِ ما شِئتَ راشدا ما تَعَنّى
...
فإلى كمْ وكمْ فؤاديَ أُهدِي وإلى كمْ وكمْ تتجنّى ؟
قد أمَتَّ الوصالَ منك بصَدّ لو أعدتَ الوصالَ مِنْكَ لَعشْنا[42]

ولما وجد العباس أن محاولة استعطاف فوز لم تجدِ نفعا, راح يستفهم منها أسباب عتابها, ويطالبها بمسوغات صدودها .

ولقد أقولُ له ودمعي مُسبلٌ: فيما عتبتَ عليّ عَتْبَ الواجِدِ ؟
ألقولِ واشٍ ظالمٍ أقصَيْتني ـ نفسي فِداؤك ـ أمْ لذنبٍ واحِدِ ؟
إنْ كان ذنبٌ جئتُه بجهالةٍ فاغفِرْ فلستُ إلى الذّنوبِ بعائدِ
فأجابني مُتبسّما لا يرعوي هيهاتَ تَضْرِبُ في حديدٍ باردِ[43]

وأول شيء التفت إليه الشاعر هو دور الوشاة (ألقول واش ظالم), بوصفه دورا مهما في قصص العشاق, فالوشاية آفة تعترض سبيل المحبين, وتنغص عليهم صفو حياتهم؛ ذلك أن ((الواشون والوشاة فصل في كل قصة حب, وهل يفعل الناس إلا أن يراقبوا الناس))[44],ويحسدونهم على ما ملكوا, ويسعون إلى إثارة العداوة والبغضاء فيما بينهم , لغايات متباينة[45].

والشيء الثاني الذي وقف عنده الشاعر, هو ما يمكن أن يكون قد صدر منه من ذنب (أم لذنب واحد), مشيرا إلى أن هذا الذنب الذي توآخذه عليه ـ على فرض أنه قد بدر منه أصلا ـ لم يصدر منه عن قصد أو تعمد(بجهالة), وإنما هو أمر خارج عن إرادته, ومن ثم فإن عليها أن تسامحه, وتغض الطرف عن ذنبه[46], ولعل الذي سوغ له مطالبته تلك ,أنه كثيرا ما كان يغفر ذنوبها, ويطوي صفحا عن إساءتها, ويغض الطرف عن زلاتها, بدافع العشق والهيام[47] .

وهنا تحاول فوز أن تسوغ للشاعر أسباب عتابها المتواصل, ولعل أهم سبب وقفت عنده هو مصداقية حبه؛ إذ ترى أن حبه لم يكن صادقا ,ومتمكنا من نفسه, مالكا لزمام مشاعره وأحاسيسه.

عذّبتِ قلبي بالعتابِ فكُلّما فَنِيَ العتابُ بدأتِه بعتابِ
وزَعمْتِ أنّي لا أحِبّكِ صادِقا واللهُ يَعْلَمُ ما تُجِنُّ ثيابي
لولا مَخافةُ أنْ تُصيبَكِ دَعْوَتي لَدَعوْتُ يا سَكَني على الكذّابِ[48]

ويبدو أن الشاعر كان مدركا أن فوزا كانت تدعي بقولها؛ إذ ليس لها ما يؤيد ما ذهبت إليه,ومن ثم فهو قول عابر يحمل في طياته معان عدة, فمصداقية الحب قد تبدو في أقوال العاشق, وما ينطق به من كلمات تنُمُّ عن شدة عشقه وولهه بمحبوبته, أو قد تبدو في أفعاله وسلوكه, إذا ما تراءت له محبوبته, بل أن نظرة واحدة إلى العاشق, تكفي للجزم بصدق مشاعره؛ إذ ترتسم عليه ملامح ذلك العشق, من طول سهر وتسهيد, وبكاء وألم ومعاناة, لا تنقضي إلا برؤية المحبوب, والتزود منه[49] ؛ لذلك وجدناه يعبر عن قولها بالزعم والكذب (وزعمت), (لدعوت... على الكذاب) .

ولعل فوزا أدركت أن قولها غير مقنع, فراحت تتحرى أسبابا أخرى تستند إليها في عتابها, فوجدته في تناسيه لها, وإغفاله عنها .

جاء الرسولُ بِقرطاسٍ فشوّقني ... منها فأحببْتُ منه كلّ قرطاسِ
فيه مُعاتَبَةٌ منها تُذكّرُني ... ما كانَ منها كأنّي غافلٌ ناسِ
لا تحْسَبي أنّ طُولَ الدهر غيّرني ... بل زادَني شَغَفا يا أطيبَ الناسِ
لم يَجْرِ ذكرُكِ في لَهْوٍ ولا طَرَبٍ ... إلا مزجتُ بدَمْعي عندَهُ كاسي[50]

والملاحظ هنا أن عتابها لم يجرِ على وفق أسلوبها المعتاد, وهو المواجهة المباشرة مع الشاعر, وإنما عمدت إلى الرسائل والرسل في بيان عتابها (جاء الرسول بقرطاس) , ولعل السبب في ذلك إما خشية الرقباء والوشاة الذين لم يكن لهم همٌّ سوى تقصي أخبار العاشقين, والعمل على بَثّ الفرقة بينهم, أو أنها كانت تخشى مواجهته, والبوح بعتابها؛ لأنه لا يستند إلى حقائق ملموسة, وإنما مزاعم وادعاءات .

بعثْتُ إليّ صحيفةً مخْتومَةً ... نفسي الفداءُ لِخطّها والكاتبِ
ففككتُها فقرأتُ ما قد حبّرتْ ... فإذا مقالةُ مُسْتزيرٍ عاتبِ
في الوُدّ تزْعُمُ أنني ذو مَلّةٍ ... خُنْتُ العُهودَ فديتُها من كاذبِ
أنتِ أخونُك يا ظلومُ وحُبّكم ... مِنّي بحيث جرى شَرابُ الشاربِ ؟[51]

فهذه المزاعم تدور حول مللِه منها, ومن حبها, ومن ثم خيانته لها (تزعم أنني ذو ملة خنت العهود), مما جعل الشاعر في حال دفاع عن نفسه, وكأنه ليس له شغل شاغل سوى إقناع فوز بمصداقية كلامه (أنى أخونك ...) وحقيقة مواقفه, والتزامه العهود والمواثيق التي قطعها على نفسه, والتي ليس له أن يخالفها ـ شاء ذلك أو لم يشأ ـ أصلا؛ ذلك أن أي ((عاشق مغلوب على أمره, مسلوب الإرادة في هواه وفعله,وكم من العاشقين حاولوا أن يصرفوا قلوبهم عن عشقها, وحملها على السلوان,... , ولكن هيهات, فقد فقدوا سيطرة عقولهم وإرادتهم على قلوبهم))[52], ولم تعد منصاعة لهم , أو خاضعة لأوامرهم .

والملاحظ أن الشاعر قد استعمل اسم (ظلوم) في إشارته ـ في ما يبدو ـ إلى فوز, مما يشي بعمق الظلم الواقع عليه منها , وشدة مرارته في نفسه , فضلا عن أن (ظلوم) قد جاء على صيغة المبالغة (فعول) , التي تشير إلى من دام منه الفعل وكثر[53] .

ويبدو الإصرار واضحا في لومها وعتابها ,وفي مزاعمها أيضا, وكأنها تريد من وراء ذلك ـ في ما يبدو ـ إظهار العباس بمظهر المتجني عليها, والظالم لها, والمعذب لقلبها .

كتبتْ في الكتابِ فوزٌ فقالتْ ... في عتابٍ منها وفي إلطافِ :
ما مَلِلْناكَ إذ مَلِلْتَ ولكنْ ... أنتَ يا حِبُّ صاحِبُ استطرافِ ؟
وكذاكَ المَلولُ من سائرِ النا ... سِ سريعُ الإقبالِ والانصرافِ[54]

ويتبدى ذلك ـ بحسب قولها ـ في تقليل المكوث عندها, وعدم الإطالة في لقائها (سريع الإقبال والانصراف), بل تقليل زيارتها, وهي إشارات تدل ـ كما استنتجت فوز ـ على ملل العباس, وسأمه منها (إذ مللت),(وكذاك الملول), ومن ثم السعي إلى الصدود عنها وهجرها .

كتبتْ تلومُ وتستريثُ زيارتي ... وتقولُ لستَ لنا كعهدِ العاهِدِ
فأجَبْتُها ودموعُ عيني جَمّةٌ ... تجري على الخدّينِ غيرَ جوامِدِ :
يا فوزُ لمْ أهجرْكُمُ لِمَلالةٍ ... مِنّي ولا لِمقالِ واشٍ حاسِدِ
لكنّني جرّبْتُكُمْ فوجدْتُكُمْ ... لا تصبرونَ على طعامٍ واحدِ[55]

وعلى ضوء عتابها المتواصل, لم يكن للعباس بدٌّ سوى محاولة الدفاع عن نفسه, وتسويغ موقفه, مشيرا إلى أن موجبات فعله (الهجر) لم يكن بسبب تأثير داخلي (ملالة مني), أو تأثير خارجي (مقال واش حاسد)[56], وإنما كانت له مسوغات أخرى, أجبرته على ذلك, واضطرته اضطرارا, وهي مسوغات كان بعضها بسبب فوز نفسها؛ إذ لم تكن مواقفها تجاهه واحدة, وإنما كانت مواقف متباينة (لا تصبرون على طعام واحد)[57], استدل العباس من خلالها على تغير فوز وتبدل أحوالها, ولعل أهم موقف آلمه منها, استشعاره مللها منه[58] .

الهوامـــش

1 ينظر : العشاق الثلاثة: .110
2 يقول العباس بن الأحنف:
ورَضيتُ بعد تنكّبي طُرُقَ الهوى أنْ قيلَ : صاحِبُ رايةِ العشاقِ
ديوان العباس بن الأحنف: 201.
3 ينظر : الشعر والشعراء: 597, طبقات الشعراء: 254 .
4 العباس بن الأحنف : 28 .
5 تباينت الآراء حول شخصية فوز الحقيقية, فمنهم من يرى أن فوزاً هي علية بنت الخليفة المهدي , وأخت الرشيد, ومنهم من يرى أنها جارية منعمة مترفة لأحد أغنياء بغداد . ظ : اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري : 310, العباس بن الأحنف : 90 .
6 ينظر : الحب المثالي عند العرب: 3 , اتجاهات الشعر في العصر الأموي : 427 .
7 ينظر : جمهرة اللغة , تهذيب اللغة , الصحاح, تاج العروس : مادة (عتب) .
8 ينظر : فن العتاب في شعر البحتري : 1 .
9 بهجة المجالس وأنس المجالس : 1/ 155 .
10 تزيين الأسواق في أخبار العشاق : 1/ 166 .
11 ديوان المعاني : 1/ 163 , وينظر : ديوان الصبابة : 1/ 57 .
12 العمدة : 2/ 109 .
13 قال بشار بن برد:
إذا كنت في كل الذنوبِ معاتباً صديقك لم تلقَ الذي لا تُعاتِبُهْ
فعشْ واحدا أو صِلْ أخاكَ فإنه مُفارقُ ذنْبٍ مرّة ومُجانِبُهْ
ديوان بشار بن برد : 106 .
14 العمدة : 2/ 109 .
15 ديوان المعاني : 1/ 163 .
16 ديوان العباس بن الأحنف : 161 .
17 المصدر نفسه : 225 .
18 بهجة المجالس وأنس المجالس : 1/ 155 .
19 ديوان العباس بن الأحنف : 4 .
20 المصدر نفسه : 100 .
21 المصدر نفسه : 62 .
22 طوق الحمامة في الألفة والألاف : 69 - 70 .
23 ديوان العباس بن الأحنف : 204 .
24 المصدر نفسه : 22 .
25 بهجة المجالس وأنس المجالس : 1/ 155 .
26 ديوان العباس بن الأحنف : 48 .
27 المصدر نفسه : 251 .
28 المصدر نفسه : 30 .
29 المصدر نفسه : 174, وينظر : 33 .
30 المصدر نفسه : 52 .
31 المصدر نفسه : 52 .
32 لعل من بوادر تغير حال فوز تجاهه, ردها للهدايا التي كان يبعثها إليها , فقال :
ردّتْ عليّ هديةً لو أنّها بعثتْ إليّ بمثلِها لمْ أرْدُدِ
وتقول: إني قد تركتُ غَوايتي فاذهبْ لشأنِكَ راشدا لمْ تُطْرَدِ
المصدر نفسه : 88 .
فضلا عن أنها لم تعد تراسله كما عهدها, فقد انصرفت عن مراسلته,بعد أن كانا يتبادلان الرسائل, بل إنها لم تعد تأبه لرسائله كثيرا؛ إذ لا تجيب عنها, فقال :
يا فوزُ قد حدثتْ أشياءُ بعدكُمُ إني وإياكُمُ منها على خَطرِ
...
صارت رِسالتُكُمْ يا فوزُ نادِرةً بعد التتابُعِ بالآصالِ والبُكَرِ
المصدر نفسه : 140 .

وقوله :

وكــنتُ إذا كتبتُ إلــيكِ أشكــو ظلمتِ وَقلتِ ليسَ لَهُ جوابُ
وَصــرْتُ إذا انتهى منّــي كتابٌ إليــكِ لِتعْطِفــي نُبذَ الكتابُ

المصدر نفسه : 22 , وينظر : 89 , 50 .

33 المصدر نفسه : 38 .

34 المصدر نفسه : 37 .

35 المصدر نفسه : 130 .

36 إن أحوال فوز المتبدلة, قد أثارت هواجس الشاعر وشكوكه, حول حقيقة حبها, ومدى مصداقيته, فقال :

أصــادقٌ حُــبـّــكِ أمْ كــــاذِبُ يــا خُلّتــي ؟ حُبّكِ مَصْنوعُ
عاهدتِنِي أنْ تحْفظي لي الهوى فقَـدْ بــدا لــي مِنكِ تضيــيعُ

المصدر نفسه : 172 .

وقوله :

لــو كُنْتِ صادقةً كما أخبَرتِنــي لرأيتُ منكِ على الصّفاءِ دليلا
لــسنا نُصدّقُكُمْ ولــو أخبَرْتــمُ حــتى نَرى فِعلا يُصَدّقُ قيلا

المصدر نفسه : 226 .

37 تزيين الأسواق في أخبار العشاق : 1 /167 .

38 المصدر نفسه : 35 .

39 المصدر نفسه : 64 , وينظر : 35 .

40 المصدر نفسه : 58 .

41 المصدر نفسه : 58 .

42 المصدر نفسه : 268 .

43 المصدر نفسه : 92 - 93 .

44 تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : 304 .

45 قد لا يكون هدف الواشي من وشايته سوى تفريق العاشقين, والتلذذ بمشاهدة الألم الذي يسببه صدود أحدهما عن الآخر, وقد يكون هدفه لأغراض شخصية, فهو يعمد أولا إلى تفريق العاشقين, ثم يسعى ثانيا إلى الاستئثار بالمحبوبة , والفوز بها, وهو من أشد أنواع الوشاية تأثيرا في النفس . ينظر: طوق الحمامة في الألفة والألاف : 53 - 54 .

46 إذا كان الشاعر يطالبها هنا بغفران ذنبه ـ لأنه قد صدر منه بجهالة ـ فإننا نراه في موضع آخر يطالبها بعدم غفران ما جاء به من ذنب؛ إذ ليس له ذنب سوى حبها, وهو ذنب تعمد إتيانه, وصدر منه عن قصد. فقال:

أميرتــي لا تغفــري ذنبـــي فــإن ذنــبــي شِــدّةُ الــحــبِ
يـــا ليتني كــنتُ أنــا المُبْتلى منْـــكِ بأدنـــى ذلــكَ الذنــبِ

ديوان العباس بن الأحنف: 57 .

وقوله:

استغفــرُ اللهَ إلا مِــنْ مودّتِــكُمْ فــإنــها حَسَناتــي يَــوْمَ ألقــاهُ
فإنْ زعمتِ بأنّ الحبّ معصيةٌ فالحبّ أحسنُ ما يُعصى به اللهُ

المصدر نفسه : 285 .

47 قال العباس :

إذا ما جَنتْ ذنبا تلمّسْتُ عُذْرَها فإنْ لم أجدْ عذرا غفرتُ لها الذنبا

المصدر نفسه : 39 .

وقوله :

تحـمّلْ عظيمَ الذنبِ ممنْ تُحبـّهُ وإنْ كنتَ مظلوما فقلْ : أنا ظالمُ
فإنك إلا تَغفِرِ الذنْبَ في الهَوَى يُفارِقْكَ مَنْ تَهْوى وأنفُكَ راغِمُ

المصدر نفسه : 243 .

48 المصدر نفسه : 34 .

49 ذكر ابن حزم في (باب علامات الحب) , جملة من العلامات التي يستدل من خلالها على عشق العاشق, منها بَهْتٌ يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة, وطلوعه بغتة, والسهر, والبكاء, وغيرها من العلامات . ينظر : طوق الحمامة في الألفة والألاف: 13 - 20 .

50 ديوان العباس بن الأحنف :165 , وينظر: 167 .

51 المصدر نفسه : 27 - 28, المستزير : طالب الزيارة .

52 اتجاهات الشعر في العصر الأموي : 426 .

53 ينظر : ديوان الأدب : 1/ 85 , همع الهوامع : 2/ 97 .

54 ديوان العباس بن الأحنف : 187 .
55 المصدر نفسه : 106 .
56 على الرغم من أن الشاعر قد أشار إلى أن هجره فوزا لم يكن بسبب الوشاة , إلا أننا نجد في شعره ما يشير إلى تخوفه من هؤلاء الوشاة والرقباء, مما يعكس الحال النفسية القلقة التي يعيشها , وما يكنه في نفسه من ألم ومكابدة, ومشاعر مضطرمة, برزت في تسويغاته المتباينة, التي يريد من ورائها ـ كما يبدو ـ إرضاء محبوبته, وكسب مودتها , كما في قوله :

اللهُ يَعلمُ مـا أردتُ بِهَجرِكُـمْ إلا مُـصانعَـةَ الـعـدوّ الكـاشِحِ
وعلمتُ أنّ تباعُدِي وتَستّري أوفـى لوصلِكِ مـن دُنُـوٍ فاضِحِ

المصدر نفسه : 74 .
وقوله :

فيا مـن لا تحِنّ إلـى وصالي وإنْ طـالَ اجتنابـي واعتزالي
فـأُقسِمُ مـا أردتُ الهَـجْرَ إلا لأصْرِفَ عنكِ مَـكْروهَ المقـالِ

المصدر نفسه : 216 .
57 في قول الشاعر (لا تصبرون على طعام واحد) اقتباس من قوله تعالى : ((وإذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبرَ على طَعَامٍ واحِدٍ)) . البقرة / 61 .
58 يشير العباس إلى أن السبب الرئيس وراء تقليل زيارته إلى فوز,هو معاتبتها له على كثرة زياراته, ومن ثم استشعاره مللها من هذه الزيارات المتواصلة , كما في قوله :

إذا زرتُكُمْ قلتُم نزوعٌ وإنْ أدعْ زيارتَكُمْ يومـا يكـن منكُـمُ عَتْبُ

ديوان العباس بن الأحنف : 20, النزوع : من نزع الإنسان إلى أهله نزوعا, إذا حن واشتاق .
وقوله :

أقـلّ الـزيـارةَ لمـا بـــدا لــه الصّرْمُ أو بَـعضُ أسبابِـهِ
ومـــا صـَدّ عَمْدا ولكنّـــه طــريــدُ مَــلالــةِ أحبــابِــهِ

المصدر نفسه : 53 .
ومثلما كان مللها سببا في تقليل زيارته لها, فإن مللها كان السبب أيضا في هجره لها , وصدوده عنها , بوصفه السبيل الأمثل للمحافظة على حبهم واستمراره, والعلاج الناجع لتحفيز محبوبته, وإثارة مشاعرها تجاهه, ومن ثم القضاء على الملل الذي دبَّ في نفسها, وهيمن على أحاسيسها , فقال :

لم أسلُ عنكَ ولم أخُنكَ ولم يكُنْ فـي القلب عندي للسّلـوّ مكـانُ
لكـنْ رأيتُكَ قـد مَلِلْتَ زيارتـي فـعلمـتُ أنّ دواءَكَ الهِجـرانُ

المصدر نفسه : 275 .
وقوله :

إنـي لَتمنَعُـنـي مـــلالتُكُـمْ مِنكُـــمْ ومـا لي عنكُمُ صَبْرُ
ومُحـدّثٌ نفســي بـهـجرِكُـمُ إنّ الــمَلـولَ دواؤهُ الــهَجْـرُ

المصدر نفسه : 134 , وينظر : 226 .
وقوله :

رأيتُـكِ يُدْنيني إليـكِ تَباعُـدي فباعدتُ نفسي لالتماسِ التقرّبِ
لَـتَرْكي لكم والودّ فيـه بقيـةٌ أُؤمّلُـها والحبلُ لـم يتقضّـبِ:
أحبّ لنفسي من فِراقٍ على قِلًى وقد فاتني من ودّكُمْ كُلّ مَطْلَبِ

المصدر نفسه : 59 .

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم .

ـ اتجاهات الشعر في العصر الأموي , د. صلاح الدين الهادي, مكتبة الخانجي ـ القاهرة, مطبعة المدني ـ القاهرة, ط1, 1407هـ ـ 1986م .

ـ اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري , د. يوسف حسين بكار, دار المعارف ـ مصر, 1971م .

ـ بهجة المجالس وأنسُ المُجالس,وشحذ الذاهن والهاجس,القرطبي (أبو عمر يوسف بن عبد الله ت 463هـ), تحقيق : محمد مرسي الخولي , مراجعة: د. عبد القادر القط , دار الكتاب العربي للطباعة والنشر, بيروت ـ لبنان , (د. ت) .

ـ تاج العروس من جواهر القاموس , الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني ت 1205هـ) , منشورات دار الكتب, مكتبة الحياة ـ بيروت, (د . ت) .

ـ تزيين الأسواق في أخبار العشاق , داود الأنطاكي , دار حمد ومحيو ـ بيروت, ط1, 1972م .

ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة , د. شكري فيصل, دار العلم للملايين ـ بيروت , ط2, (د.ت) .

ـ تهذيب اللغة , الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد ت 370هـ) ,تحقيق : علي حسن هلالي, مراجعة: محمد علي النجار,الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة, (د . ت) .

ـ جمهرة اللغة ـ ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن البصري ت 321هـ), مجلس المعارف العثمانية, حيدر آباد ـ الدكن, دار صادر ـ بيروت, 1345هـ .

ـ الحب المثالي عند العرب , د. يوسف خليف, ضمن مجموعة وحدة العرب , دار المعارف ـ مصر ,1961م .

ـ ديوان الأدب , الفارابي (أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم) تحقيق: د. أحمد مختار عمر, مراجعة : د. إبراهيم أنيس, مجمع اللغة العربية ـ القاهرة, ط1, 1398هـ ـ 1978م .

ـ ديوان بشار بن برد , قرأه وقدم له : د. إحسان عباس , دار صادر ـ بيروت , ط2, 1427هـ ـ 2006م .

ـ ديوان العباس بن الأحنف , شرح وتحقيق : عاتكة الخزرجي , مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة , ط1, 1373هـ ـ 1954م .

ـ ديوان الصبابة , ابن أبي حجلة (أبو العباس شهاب الدين التلمساني ت 776هـ) , دار حمد ومحيو ـ بيروت , 1972م .

ـ ديوان المعاني , العسكري(أبو هلال) , شرحه وضبط نصه: أحمد حسن بسج, دار الكتب العالمية, بيروت ـ لبنان, ط1, 1414هـ ـ 1994م .

ـ الشعر والشعراء , ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت 276هـ), تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر , دار المعارف ـ مصر, 1982م .

ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية , الجوهري (إسماعيل بن حماد ت 393هـ), حققه وضبطه : شهاب الدين أبو عمرو, دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع, بيروت ـ لبنان, ط1, 1418هـ ـ 1998م .

ـ طبقات الشعراء , ابن المعتز , تحقيق : عبد الستار أحمد فراج , دار المعارف ـ مصر, ط4, (د.ت) .

ـ طوق الحمامة في الألفة والألاف , ابن حزم(أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ت 456هـ), ضبطه ووضع حواشيه وفهرس له: أحمد شمس الدين, دار الكتب العلمية, بيروت ـ لبنان,ط3, 1424هـ ـ 2003م .

ـ العباس بن الأحنف , د. عاتكة الخزرجي, سلسلة دراسات, دار الحرية للطباعة ـ بغداد, 1397هـ ـ 1977م .

ـ العشاق الثلاثة , زكي مبارك , المكتبة العصرية , صيدا ـ بيروت , ط1, (د.ت) .

ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده , القيرواني (أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي ت456هـ), تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد, دار الجيل للتوزيع والنشر والطباعة ـ لبنان, ط4, 1972م .

ـ فن العتاب في شعر البحتري , علي عباس سلمان الربيعي ,رسالة ماجستير, كلية الآداب, جامعة الكوفة , 1999م .

ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع, السيوطي(جلال الدين), مطبعة السعادة ـ مصر,ط1 , 1327هـ .